الإذعان لجميع السنن الاجتماعية، وتوفير كل ما تواضع عليه الناس. وهذا ما تمليه عليّ خبرتي اليوم.. أنا اليوم ذو دخل قدره ثمانون ألف ليرة. ومالي هذا يخولني مصاهرة آل دوبريون، فابنتهم، وهي صبية في التاسعة عشرة، تحمل إليّ بزواجها اسمها، وتحمل لقباً ورتبة في حاشية جلالته، ومكانة من ألمع المكانات. وإني لأعترفنّ لك، يا ابنة عمي العزيزة، أني لا أحب البتة الآنسة دوبريون. لكني بتزوجها أضمن لأبنائي وضعاً اجتماعياً لا تحصى فوائده: فالنزعات الملكية تستعيد عزها يوماً بعد يوم، بحيث أن ابني، إذ يغدو بعد سنوات قلائل حائزاً للقب المركيز دوبريون ولإقطاعه بريع أربعين ألف ليرة، يغدو في وسعه أن يحتل في الدولة المرتبة التي يشاء..»[٤٦].

يتضح تماماً أن بالزاك في روايته هذه يبرح به التعطش إلى الانسجام وجمال العدالة والأخوة التي دافعت من أجلها البورجوازية ثم خانتها خيانة فظيعة حين جعلت همها الوحيد هو جمع الثروة والالتحاق بركب الأرستوقراطيين والنبلاء الذين كانت تجافيهم وتناصبهم العداء. إن بالزاك يحتج هنا بشدة على البورجوازيين في شخصيتي العجوز «غرانده»، والفتى «شارل». فكل منهما جمع ثروة بطرق غير شرعية على حساب الآخرين وعلى حساب القيم والمثل الأخلاقية. إن «غرانده» أخذ مال زوجته واشترى به حقول العنب وعرق الفلاحين الذين كان يهضم حقوقهم، وفي الوقت نفسه كان يعامل تلك الزوجة وابنتها معاملة الرقيق. ويبلغ به الجشع ذروته حين أخذ يساوم ابنته «أوجيني» كي تتنازل عن ميراث أمها بعد موتها[٤٧]، هذا فضلاً عن تنكره لأخيه المفلس وضربه بوصيته عرض الحائط. أما «شارل» فقد «اشترى وباع صينيين وزنوجاً، وأطفالاً وأعشاش سنونو، وفنانات، واستنفد جميع وسائل الربا والحرام. ولم يكن يتوانى عن الذهاب إلى جزيرة القديس توما ليشتري، بثمن بخس، بضائع قرصنها القراصنة، ثم يجلبها إلى الأسواق المحتاجة»[٤٨]. إن المفاهيم الأخلاقية اختلت عنده إلى أقصى حد، فنضب قلبه من دماء الإنسانية، وأصبح جافاً لا يتورع عن نكث عهد ابنة عمه البريئة من أجل المال والألقاب.